في ذكرى وفاة المرحوم خليل قنصل

الأستاذ الدكتور هُمام غَصِيب

أستاذ الفيزياء النظريّة

عضو مَجْمَع اللغةِ العربيّةِ الأردنيّ

كان **خليل قنصل** نفحةً من "الطيبة" الواعية، غيْر الساذجة. فهذه طيبة لا تنخدع بسهولة، وأبعدُ ما تكون عن الضعف. هي طيبة مُتأصّلة في نفس صاحبها: تُعطي بلا حساب، وتتعاطف مع المُعذّبين والمُهمّشين والهشّين. هاجسُها الإيثار والتضحية والفداء. لكنّها تنتفض حين يدوس على طرفها أحدُهم أو يحاول أنْ يستغلّها. ... طيبة تُوازنُ بيْن العطاء المُتدفّق وعدم الوقوع في فخّ الخداع.

وما كنْتُ لأتوقّفَ عند هذه الصفة من صفات خليل لولا أنّها طبعت معظم أبعاد شخصيّته بطابعها. لنبدأ بعفْويّته! فلم يكنْ يعرف التحذلق والتصنّع و"التمثيل"؛ وكأنّه وُلد البارحة، أو وصل إلى الأرض قبل بضعة أيّام من المِرّيخ! وكان معظم معارفي وأصدقائي يتفاجأون حين يلتقونه لأوّل مرّة. وما زلت أذكر اندهاش المرحوم الدكتور أسامة الخالدي، الذي عبّر عن ذلك بلغته المميّزة، قائلاً لي: "قابلْتُ قبل قليل واحدًا من الصالحين الأبرار"! وكنّا أنذاك نعمل كلانا مع سموّ الأمير الحسن، ونتقابل كثيرًا في رحاب "مجلس الحسن". ولا بُدّ أنّ "خليلاً" خاض تجاربَ مُرّة من العنَت والمعاناة في مرحلةٍ ما في حياته كي "يكتسب" تلك العفْويّة؛ فمثلها لا يتأتّى للمرء جُزافًا. وكان جُزءًا لا يتجزّأ من تلك العفْويّة أنْ يتكلّمَ بطريقته الفريدة من صميم قلبه وهو يُحدق بعيْنيْن واسعتيّن مباشرةً في عيْنيْ مُحدّثه. كان يفعل ذلك دائمًا بطاقةٍ حركيّةٍ وصوْتيّةٍ وربّما حراريّةٍ يُغبَط عليها! ولمْ يكنْ لينسى أنْ يُطعّمَ عفْويّته بشيء من الفكاهة!

بعد العفْويّة، يأتي الصدقُ والنزاهة والاستقامة. والصدق يبدأ مع الذات؛ ثمّ يتفرّع إلى عباد الله. وهو يتطلّب شجاعةً كُبرى، سيّما حين يكون المرءُ تحت المجهر (الميكروسكوب) والمقراب (التلِسكوب) معًا! كان خليل صادقًا دوْمًا؛ وكأنّ لا خيارَ له في هذا الأمر. ذلك أنّه لم يكن هنالك أيّ فاصلٍ – ولو شَعرة واحدة – بيْن باطنه وظاهره؛ بيْن "الجوّاني" و "البرّاني". فإذا كانت العفْويّة "مُقدّمة" مَنطقيّة، فلا بُدّ أنْ يكون الصدقُ "نتيجة" من النتائج. ومثله مثل النزاهة والاستقامة. كلّ هذه الشمائل كانت مُرتبطة بعضها مع بعض. لذلك، كان التعاملُ مع خليل، حتى في القضايا الشائكة، سهلاً ميسورًا؛ لأنّه كان الرجلَ الصادقَ الأمين.

وكان أيضًا نِعْم الخِلّ الوفيّ. وفضيلة الوفاء أمّ الفضائل، كما وصفْتُها في تقديمي للكتابَ الذي أعدّه خليل في الذكرى العشرين لرحيل طيّب الذكر الدكتور عبد الرحيم بدر، والذي شاركتُ في تحريره. ووصفْتُ وفاءَ خليل بأنّه "كالذهب الخالص"، وأنّه أصبح طبيعة ثانية له "تكاد لا تُفارقه". وكان دائمًا يذكر ديْنَه المعنويّ الكبير للدكتور عبد الرحيم، ويتلمّس الوسائل المُختلفة لإبقاء ذكراه حيّة في نفوس الفلكيّين والمُهتمّين بالعلم عمومًا. ولم يكتفِ بالكتاب المذكور؛ بل أعدّ، قبل رحيله ببضعة شهور، مُجلّدًا ضخمًا جمع بيْن دفّتيْه صورةً من كلّ مقالة أو شذرة أو قُصاصة كتبها الدكتور عبد الرحيم. وذات يوم، قبل انهياره المُفاجيء المؤسف بأسابيعَ معدودة، حمل إليّ نُسخة من هذا المُجلّد. كنْتُ في مكتبي بالطابق الثالث من قسم الفيزياء في الجامعة الأردنيّة. وكان يلهث بعد صعوده الدرَج من الطابق الأوّل إلى الثالث. فلم يعرفْ مكان المصعد في المبنى؛ وحتى لو عرف، ما كان ليستعملَه! وقبل أنْ يَلتقطَ أنفاسه، أخبرني – دون أيّ مُقدّمات – أنّ النسخة التي يحملها معه من مُجلّدِهِ هي واحدة من عشر نُسخٍ أو أكثر بقليل. ويا له من مجلّد يَشعّ جَلَدًا وجَهدًا وحُبًّا! ولعلّ ذلك كان لقاءنا الأخير. ولمْ يكُن الأعزّاء والعزيزات في مركَز الفيزياء النظريّة والفلكيّة، والجمعيّة الفلكيّة الأردنيّة، على دراية بوجود عمل خليل هذا حين ذكرتُه لهم. لكنّني وعدتُهم أنْ أهديهم نُسختي؛ عسى أنْ تُشكّلَ يوْمًا ما نَوَاة للأعمال الكاملة للدكتور عبد الرحيم.

والقارىء الكريم سيُلاحظ، في مواضعَ عِدّة من الكتاب الذي بيْن يديْه، عددًا آخَرَ من الأمثلة الساطعة التي أظهرت وفاء خليل نقيًّا شفّافًا كالشهْد الصافي. لنأخذْ، مثلاً، إقدامَه على جمْع أوراق المرحوم جلال النحّاس وتحريرِها ونشرِها في كتاب بعنوان "أوراق مُقاتل". كان ذلك على نفقته الخاصّة؛ مثله مثل سائر كتبه. وكان يُردّد أمامي بأنّ مواردَه محدودة؛ لكنّ "الواجب واجب". والغريب أنّه كان مُتعاقدًا مع أحد أصدقائه مِن أصحاب المطابع بأنْ يَطبع الكتاب أوّلاً في خمسين نسخةً فقط! ثمّ ينتظر ريثما يُزوّده خليل بالتصويبات والتعديلات التي اقترحها الزملاء والقرّاء؛ إضافة إلى ملاحظاته الشخصيّة. فيَطبع خمسين نسخةً أخرى؛ وهكذا دواليْك. فآخِرُ خمسين نُسخة، والحالة هذه، تكون الأصلحَ والأفضل! مثالٌ آخر: أصدر خليل "ديوان الشاعر الشعبيّ سالم قنصل" بمُقدّمةٍ ضافية، مع أنّ هذه المرّة تلقّى دعمًا ماديًّا من وزارة الثقافة الأردنيّة. وسالم قنصل إنْ هو إلاّ جَدّ خليل!

وكم كانت مؤثّرة مُلازمتُه لكبار القوْم، سنًّا وتقديرًا! فقد كان يَعودُهم إذا أصابهم أيّ سقمٌ أو اضطرابٌ صحيّ. وكان خيْرَ السند لهم في قضاء أعمالهم، خصوصًا تلك المُتّصلة بكتاباتهم وآثارهم القلميّة. فها هو يُصبح ابنًا روحيًّا للأديب الكبير روكس بن زائد العُزيْزي (أبي عادل)؛ بل أصبح جليسَه وأنيسَه في سنيّه الأخيرة. وبات يَعرف موْضعَ كلّ ورقةٍ أو وثيقةٍ أو كتابٍ له. فحين انتقلتْ مكتبة أبي عادل العامرة إلى مَجْمَعنا، مَجْمع اللغة العربيّة الأردنيّ، بناءً على وصيّته، كان خليل هو المُنفّذَ والمُشرفَ على الأمر.

وحين أراد المجمع أنْ يُكرِّمَ عددًا من الشخصيّات، من أحياء وراحلين، في الذكرى الأربعين لتأسيسه، بمَنح كلٍّ شخصيّة من الأحياء (أو مَنْ يُمثّل أُسرَ الراحلين) الدرعَ المجمعيّ الخاصّ، اقترحْتُ أنْ يتسلّمَ خليل درع المرحوم أبي عادل. فمَن كان أحقّ منه؟ وهكذا كان.

كذلك، كان خليل من أقرب الأقربين للدكتور يعقوب زيادين (أبي خليل)، تلك القامةِ الوطنيّةِ النبيلة. وإنْ أنسَ، فلا أنسى مُكالمة خليل الهاتفيّة ذات صباح، التي سألني فيها إذا كان بالإمكان زيارتي برفقة الدكتور يعقوب. وكنْتُ حينها رهينَ البيت أعاني الأمرّيْن من "القدم السكّريّة". وكان خليل، بحسّه المُرهَف و"حاسّته السادسة"، يشعر تمامًا بما كنْتُ أُقاسيه. كان يُقدِم على الاتّصال بي ثمّ يُحجِم، ويحوم حول نفسه مِرارًا؛ وكأنّه لا يعرف كيف يُروّح عن نفسي ويُهوّن من محنتها. فكم رحّبْتُ بهذه الزيارة! وكم سَعدْتُ بها وبالحديث الصافي الرائق للدكتور يعقوب، الفلسفيّ الاجتماعيّ حينًا والتاريخيّ حينًا آخَر! وكان هذا اللقاءَ الثاني والأخير الذي جمعني بالدكتور يعقوب؛ فبالكاد كنْتُ أعرفه شخصيًّا. إلاّ أنّ خليلاً كان واسطة خيْر في هذه المرّة ومرّاتٍ أخرى مُتعدّدة. فطوال إقامتي "الجبريّة" في البيت، كان يتصدّر "الوفود"، من الجمعيّة الفلكيّة الأردنيّة وعيْرها، وأصدقاء بعيْنهم للاطمئنان على صحّتي. فكيف أنساك أيّها "النشميّ" الشهم؟!

عرفْت خليل قنصل عن قُرْب منذ أواخر الثمانينيّات من القرن الماضي. كنّا وصحبنا آنذاك، بمَن فيهم الدكتور عبد الرحيم بدر، بصدد تأسيس الجمعيّة الأردنيّة لتاريخ العلوم. وكنّا نجتمع، على الأقلّ مرّة أسبوعيًّا، في مقرّ مؤسّسة آل البيت/المَجْمع الملكيّ لبحوث الحضارة الإسلاميّة، بعد أنْ وافق رئيسها المرحوم الدكتور ناصر الدين الأسد على استضافتنا فيها. وكانت جلساتنا مسائيّة، ولا تخلو من الحماسة والآمال الكبيرة. كانت مرحلة تأسيسيّة وضعنا فيها النظام الداخليّ للجمعيّة، وخطّطنا لتوْسيع قاعدة عُضويّتنا، وناقشنا بحوثًا ودراسات تُراثيّة مُتعدّدة. ذلك أنّ التعبير "تاريخ العلوم" كان يَعني لنا – وما زال – موْضوعًا واحدًا فقط هو تُراثنا العلميّ. وكُنّا بيْن الآونة والأخرى نجتمع في بيْت عضو من أعضائنا، داخلَ عمّان أو خارجها. وكانت تُقدّم لنا في هذه المُناسبات أطباقٌ تُراثيّةٌ شهيّة.

تحدّث خليل عن نفسه، في أحد اللقاءات المُبكّرة، قائلاً إنّه سُجن، وهو في ريْعان الشباب وميْعة الصبا، في [سجن] "الجَفَر" سيّء الذكر (الذي أزيل تماما قبل سنواتٍ معدودات) من أجل مبادئه. فكان ردّي الفوْريّ: "إنّني أثق ثقة كبيرة بالشخص الذي يُضحّي حتى بحُرّيّته في سبيل مبادئه ومُثله العُليا." ثمّ أردف قائلاً: "أنا جيولوجيّ ...". فتفرّسْتُ في وجهه هُنيْهة، وقلْت: "أرى أنّ تضاريسَ وجهِك أضحتْ تتماهى مع تضاريس بلدِنا!" فكانت سعادته غامرة بما علّقْتُ؛ وأصبحْنا صديقيْن منذ تلك اللحظة. وتوثقت عُرى هذه الصداقة أكثر فأكثر بمرور الأيّام. وعَزّز الإلفةَ بيْننا مجموعةُ عوامل، منها: أصدقاؤنا

المُشترَكون من أجيالٍ مختلِفة. ومنها أيضًا: ولعُنا بالكتابة العلميّة العربيّة. وليسمحْ لي القارىء أن أتوقّفَ قليلاً عند هذا العامل.

في ربيع عام 1983، أصدر الدكتور عبد السلام المجالي، رئيسُ الجامعة الأردنيّة آنذاك، قرارًا بتأسيس "المجلّة الثقافيّة" فيها. وعَيّن هيئة تحريرٍ لها برئاسة الدكتور خالد الكركي، وعضويّة عددٍ من أساتذة الجامعة، بمَنْ فيهم كاتبُ هذه السطور. وبعد لأي ومعاناة لذيذة، صدر العدد الأوّل منها في شهر تشرين الأوّل من العام نفسه. واستُقبِل بحفاوةٍ كبيرة. وما كنْتُ لأعرفَ، طبعًا، أنّني سأظلّ لصيقًا بها لأربعٍ وعشرين سنةً بالتمام والكمال، منها عشرُ سنوات رئيسًا للتحرير، ابتداءً من مطلع العام الجامعيّ 1989؛ أي مباشرة بعد انتهاء رئاسة تحرير الدكتور خالد. وكان هاجسي منذ اللحظة الأولى أنْ تُصبح الثقافة العلميّة العميقة جُزءًا لا يَتجزّأ منها. ذلك أنّه لا يُعقَل في هذا العصر لأيّ مجلّة تدّعي أنّها مجلّة **ثقافيّة** أنْ تكونَ خِلوًا من الثقافة العلميّة. وتحقّق جُزء من هذا الهاجس في العدد الخامس من مجلّتنا الفصليّة حين ظهر "التقرير العلميّ" للأخويْن مدانات (الأستاذ حيْدر والمُهندس حُسام)، بعد أنْ خوّلتني هيئة التحرير تكليف من أراه مُناسبًا للكتابة في الجُزء العلميّ من المجلّة. وسُرعان ما توسّعنا في هذا الجُزء حتى أصبح مجلّة داخل مجلّة، باسْم "المجلّة العلميّة". كلّفْتُ الدكتور محمود عويضة والمهندس حيدر المومني إعداد "الموْسوعة العلميّة المُبسّطة"، وتمكّنّا من استقطاب كُتّاب مُجيدين من مصر وسورية والعراق، عدا الأردنّ. وفي هذه الأجواء، دخل المسرح خليل. فاتّفقْنا أنْ نُنشىء له "زاوية الفضاء والفلك". واحتفيْتُ بذلك على طريقتي: ذلك أنّه دَرَجت العادة منذ بدايات المجلّة تقريبًا أنْ تكونَ صورة الغلاف وثيقة الصلة بزاوية "بلدانيّات". لكنّني غيّرْتُ هذا التقليد في أوّل عدد تسلّمْتُ فيه رئاسة التحرير إلى صورة مُذهلة للكوْكب الأحمر، المِرّيخ. وهذه جاءت، طبعًا، من مجموعة الصور التي اختارها خليل لمقالته الطويلة داخل العدد. أقول: "الطويلة"؛ لأنّه كان مُغرمًا بالكتابة المُستفيضة، مع الاعتراف بأنّه لا يُتقن الاختصار، مهما ترنّمْتُ بفضائل الاختصار غير المُخلّ. كان مُشترِكًا بعددٍ كبيرٍ من المجلاّت العالميّة في الفضاء والفلك، ويُنفق بلا حساب على شراء كلّ ما مِنْ شأنه أنْ يُعزّزَ معرفتَه بموْضوعِه. وكان يأتيني برُزمة أوراق ملأى بكتابات شتى حول موْضوع مقالتِه، قائلاً: هذه الصفحات تلخيص للمقالة س، وتلك ترجمة لجُزء من المقالة ص؛ وهكذا دَواليْك. وسيصهر كلّ ذلك في بوْتقة مقالتِه الجامعة المانعة المُعدَّة للعدد القادم. فماذا كان ردّ فعلي؛ على الأقلّ، في مُعظم الحالات؟ أرفع يديّ مُستسلمًا، وأبدي إعجابي بالجهْد المُضني المبذول، وننشر المقالة كاملة! فمَنْ من أصدقاء خليل، مِنْ ذوي العزيمة والهمّة، مُستعدّ لجمع مقالات خليل هذه بيْن دفّتَيْ كتاب؛ مع التحديثات الضروريّة، والتعليقات، والإضافات، حيثما يلزم؟ مَنْ؟

عاملٌ ثالث عزّز صداقتي مع خليل؛ وهو أنّه كان يتبرّع في مُعظم الأوقات بتوْصيلي إلى بيْتي بعد اجتماعات جمعيّتنا. كنّا نجتمع، كما قلْت، في مؤسّسة آل البيْت حتى جاء كالصاعقة غزو العراق للكويْت في 1991/8/2. وكنْتُ قد أصبحْتُ رئيسًا للجمعيّة (دام

ذلك لمُدّة سبع سنوات). فوجدْتُ بُعيْدَ ذلك التاريخ، قبل بَدءِ اجتماعِنا الأسبوعيّ، رسالة من المرحوم الدكتور الأسد يُخبرُني فيها باعتذاره عن عدم تمكّن المُؤسّسة من الاستمرار في ضيافتنا. كم كانتْ صدمتُنا كبيرة! وفي الأجواء الكئيبة السائدة آنذاك، محلّيًّا وإقليميًّا ودوْليًّا، كان من الطبيعيّ أنْ نربط بيْن هذا القرار وما يجري من أحداثٍ جِسام! وكان علينا أنْ نبحثَ عن مقرٍّ آخَرَ لنا. لكنْ، لمْ يستغرق الأمر من الوقت سوى دقائقَ معدوداتٍ قبل أنْ أهتديَ إلى حلٍّ لمُشكلة المقرّ: إنّه ملاذُنا الآمِن؛ مَجْمعنا، مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ. وفي اليوم التالي، ذهبْتُ للتحدّث في هذا الشأن مع المرحوم الدكتور عبد الكريم خليفة، رئيس المجمع؛ الرئيس المُؤسّس. فاستقبلني بشهامته المُعتادة ووجهه الوضّاء. واستمع إليّ حتى انتهيْتُ من كلامي. ثمّ قال: هذا مجمعكم؛ وأنتَ ابن المجمع. فعلى الرحب والسعة. ... موْقفٌ جليل لنْ أنساه، ولنْ تنساه جمعيّتنا التي ظلّتْ تعقد اجتماعاتها هناك أكثرَ من رُبع قرن. أصبحْنا نجتمع باطمئنان، وأوراقنا بأمان، والخدمات الأساسيّة مؤمّنة. فكنّا في بيْتنا الثاني. وبعد الاجتماع، تبدأ "مُغامرة" العوْدة إلى بيْتي الأوّل برفقة خليل. وما أدراكم ما سياقة خليل! كانت رحلة كلّها مرح وخِفّة ظلّ و"إثارة". وأحيانًا كنّا نتوقّف عند محلّ تصوير أوراق، كي يُصوّرَ خليل أوراقًا مُهمّة، معظمها لزميلٍ أو صديق.

لنْ ننساك أيّها الخِلُّ الوفيّ. وستبقى روحُك الطاهرة تُرفرفُ فوق هذه الديار الغالية التي أحببْت.

هُمام غَصيب

عمّان؛ في 2020/8/31